

دراسة في الفن الشعبي

محنة السمري رارا الانقام

بقلم شاكر حسن سعيد

(١) القسم الأول : مقدمة

كثيراً ما كان يظهر امامنا فوق صهوة جواده مقنماً ومن احدى عينيه يقدح الشرر . وحينما كنا بعد نأوي الى احضان امهاتنا، كان ابطال الحكايات يملون لفترات وجيزة محله ، فيلوحون من خلال ظلمة الغرف الاسطورية المنعمه بروائح المسك وهم ينتزعون النور من قلب الليل . او يدخلون الكهف بقلوب لا تلين ، ويخرجون بانوف شاحخة ووجوه قاسية . وكانوا يتقنمون للتو بقناع كفناعه ويتدرعون بأمة كلامته . وذات يوم كنت اكتشف رأسي وانا مغمض الجفنين ورائحة الرطوبة المنعنة ، واصابع امي وعمارات غطائي الصوفي . وكان كل ما حولي يسلمي الى خدر لذيذ ، ولم اك اشعر بهذا الظمأ الراهن لفقدان الاحساس . والدموع لم تكن لتتجمد في مآقي بعد ، وعلى حين غرة كان هو يصدمني بضحكة رنانة صافية فتبرز اسنانه لامعة وخالها نابه النحاسية ووجهه الاسمر ، فيبيض عن وجهي اللون الوردي ويسرع قبي الطفولي بالخفقان . وكان مع ذلك يحنفي بغتة فأفتقده ، هو هو اللعين بعينه مقنماً بالجمرة وفي كفه سيف اقتضى الحال ان يكون مقوساً ، وما وراء ظهره الدرقة النحاسية المرصعة بالماسير .

وفي ايام السبايا (١) كت استلم حزينا الى رثاه الرجال ونواح النساء من بعيد ، وكان يختاط امامي الحلم باليقظة واللاشعور بالشعور . فها هنا سوف يستحيل هو ايضاً الى الم دافق جاثم سرمدى يرن بسلاسل الندم ويتشج بسواد الاحداق . ومن خلال هذا كله سيظل ايضاً حزينا مرعباً في آن واحد ، ويسير حتى في موكب النعش حيث الجسد محمول بين رؤوس الرجال مبتور الرأس مطنخ الكفن بالدماء ، وفوقه الحمام الآمن المطمئن .

واذكر مرة ابي شهدت ما وراء هذا الجذث اسداً محمولاً في عربة يحثو التراب على رأسه ، وسلسلة من الاجداث محمولة ملطخة الاكفان مبتورة الرؤوس . وكانت اقدامها القذرة ترسم في الفضاء ما يشبه اذنان الاسماك ، واصابعها تستدير بشكل يشبه الهلال المطعون . وكان هو لا يزال يطل علي من كل شيء . ولم ينبج منه جسد ولا جدت . كان بيه مغامراً وحشاً حزينا لا يستحق الرثاء ولو من اجل ما سيقذف به من حجازة ولعنات ، ويقال ان شراً من المثلين لاتي حتفه بغتة من يد احد المتزمتين ، فمات الانسان الذي يتقمصه تاركاً زوجاً وبضعة اطفال دونما مورد مالي . ولكن صورته لم تطمس . ولكأني به الآن يجب مجدداً على صهوة حصانه ، وفي مقدمة بيضته ريشة تطاول الفضاء الذي تسبح فيه .

وهكذا كان يتقلقل في كل شيء . فهو من ابطال (اقايص الجان) و (المدن المسحورة) وهو من ابطال مسرحية يوم في عاشوراء ولكنه

(١) في عشرة الايام الاولى من محرم للسنة الهجرية تقام مراسم الندم والبكاء على شهداء معركة كربلاء . و (السبايا) اسم يطلق على المواقب التي سير ليلاً لهذا الغرض في العراق .

ايضا فلاح بسيط رضي ان يمثل دوره على المسرح بثمن بخس على ان يضع في حسابه كل المصادفات المحتملة الوقوع . وذات امسية كثية سيهجم على هذا الرجل المطمئن متمزت ويده (قامة) يهوي بها على رأسه دونما سب . ودونما سبب ايضا ستندحرج الدرقة على الارض وستصطدم بحجارة الطريق وتزهق روح الانسان من جديد على الارض التي لم تذق ماء المطر منذ فصل الحريف . ولكن هذا المارد الخرافي ، الذي كتب عليه اللعنة الازلية ، والذي ما زال يتجسد في بعض الفلاحين من ريف العراق الوسطي والجنوبي هو نفسه الذي سيظل بامكانه ان يتجسد في الآلهة: فنذ اعماق التاريخ و (السمري) يقف وجها لوجه امام ضحاياها . كانت مغامرات (جلجامش) (١) مثلاً تقتضي ان يقتل هذا المغامر (خبابا) غول غابة الارز . وهو كائن قبيح الصورة يفتك بالآمنين . (والسمري هنا ضيف الملامح) ، غير ان نزول (انكيديو)

(١) الاشارة هنا الى الملحمة السومرية [ملحمة جلجامش] وملخصها : ان (جلجامش) بطل مدينة (ارن) وجبارها ومغامرها بيني اسوار مدينته ومبعدها ثم يستبد بسكانها فبعث له الالهة غريماً هو (انكيديو) عاش اول الامر في (البرية) . وبعد معركة حامية بين الغريمين (جلجامش) و (انكيديو) ينتصر (جلجامش) الا انه يفوز مع ذلك بصداقة (انكيديو) ومن ثم يفامر كلا البطلين الصديقين معاً عدة مغامرات . ومنها المغامرة التي يقتلان خلالها (خبابا) غول غابة الارز ، ويدعي ايضاً هو اوا الذي عينه الاله (انليل) حارساً لتلك الغابة . وبعد ذلك يفتك الصديقان (بتور السماء) على الرغم من رغبة الاله الحب (عشتار) وهي التي بلغ من جبروتها ان هدت اباهة الاله (آنو) بانه اذا لم يخلق لها ثور السماء لتجارب بواسطته (جلجامش) فسوف تحطم باب (العالم السفلي) ، وتدعو الاموات الى عالم الاحياء . وتستمر الملحمة في سرد رحلة (جلجامش) (الرهية الى جده (اتونوبشتم) او (نوح العراق) وهو الذي حمله الفلك اثناء الطوفان المشهور المذكور في الكتب السماوية . فبعد ان مرض (انكيديو) جزاء قتله (خبابا) و (ثور السماء) وبعد ان مات يجزن (جلجامش) ثم يتجشم السفر ليرى جده (اتونوبشتم) وهكذا يفامر بعبور جبال (ماشو) ويمر (بالرجل المقرب) وزوجته ويمبر (بحر الموت) حتى يصل اخيراً . وهناك يستمع الى قصة الطوفان التي ينال بسببها (اتونوبشتم) الخلود . فيحاول (جلجامش) بدوره الحصول على الخلود ويحصل عليه بعد ان يرشده اليه جده نفسه . الا ان بطلنا يفقد هذا السر (وهو نبات بحري) ذلك انه حينما اخذته سنة من النوم في طريق عودته عند ساحل غدير تسالت افعى فأكلت النبات (ولهذا السبب فهي تجدد شبابها بان تلخع جلدتها) . وهنا يستسلم جلجامش نهائياً للقضاء والقدر ويرضى بما هو مقدر على البشر فيعود الى مدينته ويبدأ بالتحايز اصلاحاته . [راجع مجلة سومر الجزء (١) سنة ١٩٥٠] ملحمة جلجامش : طه باقر وبشير فرانسيس . ص ٤٣ - ٨٠ .

الى العالم السفلي يقذف بنا وجهاً لوجه امام ثمر من نوع آخر ، فهو ذلك الجلال الذي يحكم مملكة الاموات وله حاشيته .. هو آلة الموت وآلهته . وسنرى ان في هذه المملكة الدفينة من العالم الكوني السفلي او ارض (اريشكيكال) التي يأوي اليها طريقاً لا رجعة فيه [في الحكايات درب الصد ما رد] وحيث طعام شعبها التراب والطين ولباسه ريش الطيور . في هذا العالم المائل والغائب في آن واحد ، يلوح ال (ثمر) بتصدر القاعة بهيئة (ام نازو) او بهيئة (نرجال) ملك ذلك العالم السالب . وازاءهم جميعاً يكاد ان يذهب (انكيديو) ضحية بل ان تذهب الالهة (عشتار) نفسها . وهذا الشمر السومري او البابلي سرعان ما يستحيل الى آخر اشوري . ذلك ان (امايا) الامير الاشوري المغامر يتوق الى زيارة العالم السفلي وحينئذ سيعاني هناك ضروب العذاب (١) .

فلحاضرات الاولى اشارها اذن . بعيونها المور ووجوهها المنقمة . كانت لها اشارها تقسو اشد القسوة وتفتك بالناس الآمنين ، ومع ذلك فقد كانت من الالهة . بيد ان هذا لا ينبغي بل يؤكد ان ثمة (اشارا) آدميين كانوا ما يفتأون يفتكون بعد كل معركة بسكان المدينة المدحورة وبرقاب اسرام فتكاً ذريعاً سرعان ما يصبح في اذهان مؤلفي الاساطير المجهولين من صور ذلك العالم السفلي - عالم الموت والعذاب .

كان الشمر اذن على ضحكنة الذهبية يمتطي صهوة جواده ويجلد الناس بسياط لا يرونها ، وحينئذ ستفتح في ظهور الابرياء جداول من الدماء ، ويختلط الجلد الاسمر الداكن بخطوط حراء ترتع فيها ديدان بحجم الخناصر . وخلال ذلك ، خلال هذه العنة التي يتقمصها انسان لا يعيش بغير ضمائر ضحاياه ينتصب البريء المتمرد ، فهو منذ البداية لا يبدو انه صائر الى الاستسلام ، لأن (انكيديو) على الرغم من نصيحة (جاجامش) اياه بضرورة عدم التطيب او مناوأة سكان العالم السفلي ، يرفض نصائح صديقه دوقا عذر ، ويخالف تقاليد شعب (نرجال) فيزعج الاموات وملوكهم . اذ مها سيجلد الشمر هناك ضحاياه ، فالشهيد ابدأ مائل امامه . وان (انكيديو) ليدول الى الآن بصدرة العريض وقامته المدينة ، فادراً على تناول المماء ونسف مملكة الاموات ، ذلك انه الاداة التي تحدد (خبابا) وقتلت (ثورالسماء) واهانت الالهة (عشتار) نفسها .

★

منذ الحضارات الاولى والشمر يخلد في التاريخ . وهو لا يني يجد له في الظلام اجساد بعض الابرياء ، يأوي اليها او يتسرب من رأس الى آخر كما تتسرب افكار الناس وعقائدهم عبر الاجيال . ولكنه كان يتشكل احياناً بوضوح لتحل لعنته في اجساد بعض التعمساء ، وما ان تنتهي اعمارهم حتى يكونوا قد خلدوا في تاريخ الحرافة والاسطورة كما يخلد اليوم انفجار قنبلة (هيروشيا) في الرقوق الصوتية المدونة .

وحينما كان اسم (شمر) يعترضني ، كنت أقرنه اول الامر بلامح شخص اسمر البشرة ينجح ممثلو (عاشوراء) في (١) (اسطورة النزول الى العالم السفلي) من الادب السومري ايضاً .

راجع مجلة سومر عدد (٢) سنة ١٩٥٠ ص ١٧٩-١٨٦ .
- (٢) اسمه الحقيقي (شرحيل بن عمرو بن معاوية من آل الوحيد من بني عامر) .

التشبه به الى حد بعيد . ثم لا يفتأ يتلاشى شيئاً فشيئاً ويتبدد في حيزه من الفضاء كما تتبدد قطرة الندى تحت ضوء شمس الصباح . على انه حقيقة يقترن بشخص عاش في نهاية القرن الاول الهجري ، وكان على شيء من التجرد والتجرد ليتحمل وزر مقتل الحسين على عاتقيه . وعلى عاتقيه ايضاً سوف تتراكم احقاد ملايين المسلمين ما بين عربي وفارسي وهندي وتركستاني ومغربي وزنجي ، لتشيده له تمثالاً لارادة الباطل الغاشمة . واقد تحدثنا كتب التاريخ احاديث تثلب زمرة من المحاربين اصطادوا بكل قحة بعض المسلمين من عائلة النبي محمد (كعمر ابن سعد) قائد الحملة و (شمر ذي الجوشن) قائد الميمنة و (عمرو بن سعد) قاتل (القاسم بن الحسين) و (عبد الله بن عقبة) قاتل (ابي بكر بن الحسن) و (عمرو بن الحجاج) قائد حامية مورد الماء ، وسواهم . غير ان لعنة الاسطورة تستقر اخيراً على قتلة الحسين بن علي بالذات امثال (مالك بن بشر) و (زرعة بن شريك) و (سنان بن اوس) وهو الذي طعنه و (حولي بن يزيد) و (شبل بن يزيد) . وهما اللذان حزا رأسه . اما (شمر) فهو الموم الاول لانه أغرى (عبيد الله بن زياد) والي الكوفة آنذاك بالاسراع في الامر فكان ان أنقذه الى (سعد بن عمر) ليشرع بالمذبحة ، كما اوفده الى الخليفة (يزيد بن معاوية) مع رأس الحسين .^١

كان مقتل الحسين اول طعنة لفكرة الفروسية في الاسلام ، غير ان (شمر) كان بمثابة اول مقارع لذلك الانسان الكامل كما يتجرأ ويتحمل وزر حزر رأسه . وفي ضربة واحدة انهارت اول لبنة من البناء . وكما عملت يد النبي (محمد) قبل اقل من قرن مضى على مقتل حفيده من ابنته ، في انجاز حضارة المجتمع الزراعي الرعوي من ساحل الجزيرة العربية الغربي ، عملت يد (شمر) في تحدي أعلى سلطة اخلاقية - روحية للمجتمع الاموي . والواقع ان مقتل الحسين ليس الحادث الاول من نوعه . فقد سبقه اغتيال (عمر بن الخطاب) و (علي بن ابي طالب) ، غير ان ذلك الموقف البطولي الذي وقفه الحسين ، وهو الوريث الروحي للنبي نفسه وحفيد له كان يجب ألا يهدر لدى شيعة (علي) . (فعمرو بن الخطاب) هو الخليفة المسلم القاتل و (علي بن ابي طالب) هو الانسان الكامل القاتل ، لكن (الحسين) (١) راجع للامام بمحنة العلويين في كربلاء (الاخبار الطوال) : الدينوري ص ٢٢٧ - ٢٣١ . وللشيعة كتب مفصلة وادب خاص بما اصاب العلويين مدون فيما يسمى بكتب (المغال) .

هو الفارس المسلم سليل علي والنبي محمد معاً . ومن هنا فليس مقتله بالحادث الطاريء . ولا بد ان يكون قاتله من الطراز الذي سيخلده التاريخ . وهذا ما حدث فعلاً ، فكان الثمن الوحيد الذي لم يبخس (الشمر) فعلته .

ومها قيل او ما سيقال عن هذه المأساة التي تبدأ اول مسرحية في الحضارة الاسلامية فان ابطالها الذين لا يتغيرون يتبأون على مر الدهر مكاناتهم . وإني لأعجب الآن من ذلك الجندي الأموي ومن عناده الذي دفع به الى تحمل كل لعنات التاريخ الشعبي من اجل طعنة خنجر جسد اثخنه الجراح وفتحت في اديمه المدى والسيوف .

ولا بد ان كل ملائكة الله - إن كان ثمة ملائكة - لم يكونوا ليوقفوا اندفاع تلك النفس العارمة وتدفعها . فسوف تحترق من بينهم قبضة شقق جلدها سعة المدى الحراري لمنسوخ الفرات الأوسط ، وأتخن منها تراكم ذرات العواصف الرملية في مسامها . فهذا هو (نرجال) يتقمص في العصر الأموي جسد (الجندي) ليبدو بشكله المرعب جباراً بقتل زمرة حيل ما بينها وبين الماء ، مثلاً حُظر عليها الرجوع الى الحجاز والنجاة من الموت المحتم ، لأن تثبيت دعائم العرش الأموي كان يقتضي ذلك ويبرره .

وهكذا . (فشمرو ذو الجوشن) يعيد لنا الآن مأساة العالم السفلي من الأساطير السومرية ، وسنرى انه يعيد لنا أيضاً مأساة المعذبين في الجحيم من الأساطير الدينية الاسلامية .

فحينما تحدثنا الكتب الدينية عن (عروج) النبي (محمد) الى السماء كانت مناظر العذاب السرمدي تنسج لنا من خلال ذلك افاصيخ لا شكل لها عن ابطال يتعذبون في الجحيم لأن (شمرأ) مجهولاً كاث يسليخ جلودهم او يشويها . ولكم صور لي ذلك الورق الاسمر - الاصفر رؤوساً بلا اجسام كانت معلقة من ائدائها والعقارب او السنثها، أو أجساماً بلا رؤوس كانت معلقة من ائدائها والعقارب تلسعها ! لكم كانت مناظر (الضحايا) تعرض بيسر وهي تحتج بشدة على قاتلها الختفي؟! فالمرجح هو السفر الذي يعيد لنا مأساة المتمردين في العالم الارضي تحت وطأة سوط الشمر السماوي (ورأيت رجالاً ونساءً مصفدين باصفاً من نار وجباههم قد اسودت والحيات مطوقات باعناقهم تلدهم فتهمي لحومهم ثم يعودون خلقاً جديداً فقلت: يا اخي يا جبريل من هؤلاء؟ قال

هؤلاء الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله) . فليس من الضروري اذن ان يكون هؤلاء المتمردون جميعاً (كالحسين) ليقصصوا شخص الشهيد المتبرد . بل هم على العكس تردوا فحسب وقل من ظل حتى النهاية يرفض الايمان بغريمه . ومع ذلك فان ما يحيلهم امامنا الى شهداء ابرياء هو قسوة اليد التي تظل تلطم جباههم وتعاقبهم . فهؤلاء المذنبون يتعذبون بين يدي القاريء - وهو الذي ولج عالم الكتاب السحري وتعود على جوه بما قرأ فيه عن اعداد الملائكة وطبقات السماء - اجل يتعذبون بين يديه وتحت سمعه وبصره (مجازاً) بسياط لا يرونها . ويقال ان (مالك خازن النار) هو الموكل بهم ، غير ان مالكاً هذا لا يوازي الشمر الحقيقي فهو يلبس قناعاً يخفيه عن عين الناس وهو لا يرد السلام بتاتاً الا اذا عرف ان المسلم عليه هو النبي محمد ٢ . ونحن لا يمكن ان نتصوره بتاتاً في حين ان (ذا الجوشن) كان ولا يد يعيش تحت شمس الظهيرة من تموز ورمال الصحراء تضرب وجهه وحصانه يصل تحته ، لكي يضرب اخيراً الضربة القاضية . اما المعذبون في جهنم ، هؤلاء الذين يعرضون بكل اهانة بين يدي القاريء فلم يكونوا ليقعوا على اشجارهم البتة . فهم يحسون الألم ولا يرون البعوضة ويتلقون الصفحة ولا يرون الكف . وهنا يكمن عذابهم الحقيقي .

★

اجل كان (شمر) هو الأداة المتجدلة لمقتل الحسين وذويه . وهو نفسه يعترف بهذا بكل فخر . (غدونا اليهم عند شروق الشمس فاحطنا بهم من كل جانب . فلما اخذت السيوف مأخذها ، جعلوا يلوذون الى غير وزر . . . فهاتيك اجسادهم مجردة وثيابهم مرملة وخدودهم مغمورة . تسفى عليهم الرياح ، زوارهم العقبان ووفودهم الرخم) ٣ . فلا بد إذن ان يتمحن العمدل بالباطل . ولا بد للضحية من جلاد . ولقد كان (شمر) هنا هو الجلاد و (الحسين) ضحيته ولكن ثمة ضحايا بلا جلادين وهذا هو افدح أنواعها .

كنت اشهد مصرع بعض الخراف في احد المذابح فالتصاب يضع الشفرة في محلها من العنق . وبعد عدة اختلاجات وتزييف من الدماء يسكن الجسد الحي ويهدأ الى الابد . ولكن

(١) الاسراء والمعراج - للامام ابن عباس ص ٢٠

(٢) المرجع نفسه ص ١٧

(٣) الاخبار الطوال - الدينوري ص ٢٣٢ . وهذا هو نص كلام

(شمر) للخليفة (يزيد) حينما وفد اليه مع رأس الحسين .

النهرين ، فالمسرح واحد إلا ان الروايات متنوعة . والأبطال انفسهم إلا ان الممثلين متبدلون : تلوح (محكمة تفتيش) فيها متقنة إذ يذبح قتلة (الحسين) وذووه بمهارة وسعة خيال . فاسطورة (المعراج) إذن مدونة هنا بفصولها (الحمر - السود) على ورق رخيص تنجلي عليه كل الانفعالات الانسانية المعذبة . غير ان الشمر هنا لا يظهر منه سوى جانبه السليمي . فهو لا يلوح في اللوحة كما تقتضي المأساة ندلاً جباراً بقتل الحسين ، (فهذا ما لم يصور في الصور الشعبية) . ولكنه يلوح في مخنثه موضوعاً في إناء واسع مليء بالماء الساخن وهو يصرخ ورأسه مشقوق من يافوخه . ومع ذلك فالشمر يهمل عمداً في احدى زوايا المعتقل زيادة في انتقاصه كما يعذب بشدة . ويتولى تعذيبه اربع جنود يحملون العصي وينظرون الآلمه يبرود . وهنا ستعكس الآية فالشمر الآن هو (الضحية) من الناحية العملية وجنود الانتقام هم (الاشرار) . وهذا بالضبط ما سيعيد الاشياء الى وضعها الطبيعي . ولكن هؤلاء الجنود اذ يقومون بكل ايجابية بازهاق ارواح المتوردين يبدون وهم اكثر براءة في نفوس المتفرجين من اطفال في باحة ميمت منعزل . على حين تبدو الضحايا وهي اشد خبثاً من ادارة شركة بتقول . وهكذا فلم تعن تضحية (المتورد الباطل) في تعقبه . اما جندي الانتقام فليس بوسعه الا ان يتأسك حتى النهاية .

بيد ان اللوحة لا تطفح بعذاب (شمر) وحده . وان كان عذابه البذرة التي ستتمو بين جنبات اللوحة . فهناك اربعة اشهار آخرون في الصف الاول (السفلي) ، يعذبون بكل سعة خيال . واولهم (وهو مجهول : لعله شبل بن يزيد) يلتم بالجرم والثاني وهو (حولي بن يزيد) [يدعى في اللوحة بحولي] مقيد اليدين يتحمل عذابه بصبر ، اذ يغرز في قحفه وتد من الحديد الساخن بضربات شديدة من مطرقة . في حين يتمخط انفه دمماً على ركبتيه (وهذا يذكرنا بالنساء الصم البكم في الجحيم اللواتي يعذبن في تابوت من نار يخرج من دماغهن ومثل الدهن من مناخيرهن وابدانهن تنقطع من الجذام والبرص ^١ . بيد ان (منفي بن مرة) لا يكاد يطبق عذابه فهو ملقى على ظهره وصدره يبضع بالمقص قطعة قطعة . اما الاخير فهو (مجدل بن سليم) وسحنه كسحنة (شمر) الا انه يسمر هنا الى جذع شجرة . فالدم ينزف من مشطي قدميه وتغرز في صدره الشموع المضيئة .

(١) من تفاصيل (الاسراء والمعراج) لابن عباس ص ١٩ .

مرأى الجثث وهي معلقة في واجهات الدكاكين كان يهينني حتى التضاع . كنت اشهد الضحية فحسب ، اما القصاب فهو لا يبدو امامي وقتئذ إلا في اهاب طفل رضيع . لقد ذهب ذات مساء ذلك الجلاد الى ضاحية المدينة ، وما بين روايح الدماء المتعفنة ونباح الكلاب وسكون الامسية الكثيبة استمر يصرع بعض الكائنات الوديمة . وفي صباح اليوم التالي وبعد ان نام نوماً هادئاً جاء الى دكانه يبيع اللحوم بكل براءة . وحينما يجيء دور الانسان الاعزل ، ولا بد له من شراء نصيبه من اللحم ، فسوف يحظى بالضحية وجلادها معاً . ولكن حضور الضحية كان ما يزال امامه بأديها ، اما الجلاد فقد تلاشى منذ مساء اليوم المنصرم . وهكذا ، فحجته (الشمر) تتجسد في اهاب الذبائح من الحيوان كما تجسدت من قبل في نظائرها من الانسان ، إلا ان الشمر هذه المرة هو (القصاب) وليس (الجندي) او (الاله) او (الملك) . فالحنسة إذن هي هي كما تجسدت في (اسطورة المعراج) . إلا ان ما يميز مرأى الجثث في دكان القصاب هو نفسه الذي يميز صور العذاب في الجحيم ، فالابرياء هناك يساقون الى المجزرة بعصي لا ترى . ولعل ثمة يدأ شفاقة تدفع بهم الى العذاب كما يدفع إصبع السبابة جندي الشطرنج على الرقعة . فالجزار في دكانه غائب في حين تنقطع اوصال الذبيحة بكل بساطة لتملأ اجواف الناس بعد عدة ساعات من حياة آلية متواصلة .

★

(خجبابا) غول غابة الارز . صورة (شمر) في ايام السبايا . (نرجال) وسكان العالم السفلي . (شمر بن ذي الجوشن) بطل مذمجة كربلاء . (مالك خازن النار) والملائكة المعذوبون لاهل الجحيم : هؤلاء جميعهم (اشهار) (شهداء) كانوا ينتهون وهم يتلون من الالم ، وحولم السنه من اللهب الازرق المخضر . ولكن قطعة خشب منحوت بمهارة لا تكاد تعرف هذه اليد التي تلهو بها على رقعة ذات اربعة وستين مربعاً . هذه اليد العاشمة .

★

(٢) القسم الثاني : نقد اللوحة

وإزاء [دار الانتقام] كنت استعرض كل تلك الحقبنة من تاريخ الحياة النفسية للمجتمع الاسلامي في بلاد ما بين (١) انظر اللوحة . (١٢ × ١٥ انج) ألوان مطبوعة . تصوير

(المقصود) .



الانتقام من قتلة الحسين . وليلاحظ هنا ان الرسام الشعبي يرسم لنا وضعية شائعة في الرسوم الدينية . او منظر امير المؤمنين وولديه [اي علي بن ابي طالب والى جواره الحسن والحسين] فلا بد وانه بصورة لا شعورية يشهد آل البيت خلال الوضعية التي يرسمون بها على مذبح الانتقام . فليس المختار في اللوحة سوى (الحسين بن علي) وليس (ابراهيم) و (مالك) سوى بعض اولاده . وهكذا ، فاللوحة هنا لا تمثل واقعا طبيعياً ولكنها تمثل واقعا حيويًا (من الحياة) . فليس ضرورياً ان يتقيد الرسام الحيوي بالطبيعة كما انه لن يجد الناظر في دار الانتقام حادثة تاريخية ولا شعبية معينة . ولكن بإمكانه ان يجد هذا الحقد الفياض نحو (الجلاد) ، وهذا الانتصار الوثني (للشهيد) . وهما من احقاد وانتصارات سبق ان الهبت في بلاد الشرق الاوسط ولا تزال نفوساً وعواطف لا يعرف لها اقرار . من السحر اذن ان يعبر الرسام عن عواطفه وعواطف اقرانه من الجمهور المتشيع ، مثل هذا التعبير العميق . فهنا فضلاً عن (حادثة) متبلورة في قلب قضية شرعية الحكم العلوي ، مشاعر ولا مشاعر جمهور يحلم بضروب وسائل الانتقام لأن حفة من

لست ادري اية رغبة او نزوة سولت لمعذبيه هذا العذاب . ولكن تصوراً شعرياً ولا ريب هو الذي املى على الرسام مثل هذا الوضع الانتقامي الشاذ .

وفي الصف الثاني من المذبح يلوح (سعد بن عمر) وهو يُذبح ذبح الشاة . وامامه (حولى بن يزيد) نظيره في الشيخوخة يفرع الى ربه من هول المشهد . وما وراءه زوجته المؤمنة تعزى باعدامه . وفي وسط اللوحة يتجلى مقتل (زجر بن عامر) تقطيعاً بالفأس ، حيث توضع اطرافه عضواً عضواً على خشبة معدة لكي تفرم كما تفرم تماماً عظام الذبيحة على سندان الجزار . وفي اللوحة مشهدان آخران لهما قيمة منظورية هامة . فشمسة (سنان بن يزيد) و (حرملة) وهما من ذوي السحنات الشيطانية ، يربط كل منهما الى جذع نخلة ليطعن احدهما بالحراب ويرمي ثانيهما بالنشاب . ذلك ان بضعة جنود ينظرون من الجانب وهم الذين يؤدون مهمتهم بنظام ملحوظ . اما في الصف الثالث فيظهر (الحسين) نفسه في شخص (المختار الثقفي) والى يمينه (ابراهيم) و (مالك) . واولهما هو ابراهيم بن الاشتر قائد ميمنة جيش (المختار) بطل حملة

الجلادين أراقوا دماء بضعة ضحايا . ومن صميم هذا المنطق ان يكون الشهيد نفسه اكثر حضوراً من الجلاد . (فالتحار) رمز الحسين بسنخته وجلسته وكبر حجمه يملك الناظر بيسر . في حين يهمل الشمر في احدي زوايا اللوحة كما يضيع .

ومن متمات المأساة رهط الاسرى . يلوحون وهم يربطون بالسلاسل من اعناقهم ، وسجناتهم تعبر بدقة عن الذل والأسى . في حين يختم المشهد مجلس المتفرجين في الصف الأخير (العلوي) . وجلهم من آل البيت في الطابق الثاني من الساحة وهم ما بين متشف وجازع وحاقد .

وثمة قيم حيوية تؤلف اهمية اللوحة من الناحيتين (التعبيرية) و (الحيوية) . فنحن نعلم انه في ظرف جيل قد تحدث من الأحداث ما يسم نفسه حضارة بأكملها . ولقد كانت مآسي العلويين تمثل هذا التسمم ، هذا الجانب الكئيب من الجليلين الاموي والعباسي . ومن هنا فاللوحة تعبير عن القسوة والوحشية التي كانت تنال مناهلها من نفوس رجال الحكم آنئذ « إزاء فرقة دينية ذات رأي سياسي معارض في نظرية الخلافة » ولكن شمول الحادثة الانسانية والحيوية فيها هو الذي ينسحب حتى اسطورة النزول الى العالم السفلي كما يصل حتى حوادث الارهاب في سجون القرن العشرين . فاللوحة ههنا اشبه شيء بذلك العقد السحري الذي يمتلك القدرة على الشفاء من الامراض وتحقيق الآمال او دفن الاحقاد او سلب العقول . في حين لا يتحتم على العرافة ان تؤمن بسحر قلاذتها لكي تفعل مفعولها . فالرسم الشعبي لم يكن ليضمن صورته كل هذه الأعباء ولكنه يعبر بالفطرة عن مأساة ميثولوجية وانسانية معاً . هو يرسم عالم الرعب والوحشية وهو يرسم كيف ان (مهزلة) سرمدية تضع الضحية والجلاد على صعيد واحد . كما انه يرسم صراعاً رهيباً لعله كان يشهده في نفسه قبل ان يشهده في لوحته . ولكنه لا يعلم ولا شك لماذا كان يرسم كل هذا . ولماذا سيدشعر بالراحة والاسترخاء حينما ينجز رسم تلك الأشغال ويضع تلك الألوان . ثم إنه لا يدرك سوى انه ينقل معالم اسطورة متناقلة يؤمن بها وينقلها بأمانة عن صفحة خياله الخصب .

وهنا في هذه اللوحة التي لا يعزى تأليفها الى شخصية معينة ، لانها سواء في موضوعها ام عواطفها ام افكارها ام مغزاهام من تأليف الاجيال المتعاقبة . في هذه الصورة بالذات يطل علينا

(١) العقيدة والشريعة في الاسلام - جولدسبير . راجع الفصل الخاص بالفرق الاسلامية ص (١٦٧ - ٢٢٢)

الفنان الرسام بكل قواه ناطقاً معبراً عن صميم الحياة . ولكنها ليست تلك الحياة التي تلبس حادثة معينة بل حادثة عامة طبخت ونضجت خلال التاريخ . فهي ليست قميصاً وإنما قطعة رداء (كبردة) النبي (محمد) يقتنئها الحاكم او السلطان . ولكنها مع ذلك ملك ستة قرون متعاقبة . وان في اهاها اذن لعشرات الملوك والسلاطين . (فدار الانتقام) التي اجبها الآن بعنوان (محنة الشمر) هي في الواقع لا اساس لها من الصحة (كحادثة تصويرية) . اما من الناحية التاريخية فان الحملة التي شنها الختار الثقفي للتشكيل باقطاب معركة كربلاء من جيش (عبيد الله بن زياد) ومنهم (ابن زياد) هذا نفسه ، لم تتم كحكمة تفتيش يرسمها الرسام الشعبي ، على الرغم من ان الختار نفسه كما اتضح اخيراً ، كان يتخذ من ثأر الحسين ذريعة لتقوية مركزه . لكن هذه اللوحة أكثر واقعية من شعوري مجسدي وأقرب إلي من اهدابي ، لأنها تمتد خلال الزمن والمكان كطبيعة هذه الكائنات التي تحوطني . فهي ليست حاضرة امامي فحسب ، ولكنها حاضرة في العالم نفسه . ليست (حادثة) بومية عابرة ولكنها (قضية) اسطورية خالدة . إنها مشكلة (صراع) وليست (شكوى) . ذلك لانها تضج بذعر (الانسانية) خلال الانسان و (تحتج) بلسان الكون على الكائن السلمي . إلا ان حيوية اللوحة منوطة بالعناصر التشكيلية فيها . فهي لا تعبر عن عواطف معينة مقصودة ، تطفح بالتشفي والانتقام ، ولكنها تعود من طرف خفي بعناصر اللوحة الاخرى لتوثي هؤلاء الجلادين بوسائل تعذيبهم . فهي تسلبهم آثامهم بما تطرحه من مشاكل نفسية خليطة تقتضي جمود سحنات الجنود المعذبين وخنوع القاضي لأرادة السلطة المنتقمة كما تقتضي دعر الاسرى وتألم المعذبين او تضرع بعضهم . فالقاضي في اللوحة . مثلاً انسان ذرف على الثاين يتألم من المذبحة ولكنه يبورها لأنه آلة جارحة بأيد شفاقة لا يقوى على عصيانها . وحراس الاسرى من الجنود يكتسون بلامح اسراهم لأنهم يشهدون في انفسهم صراعاً رهيباً بسبب ما سيقدمونه من وجبات طعام سائغة للطباخ كنت افكر احياناً وانا لعب الشطرنج « ترى اية كائنات صماء هذه التي احركها ؟ » فالجندي لا يتراجع ابداً . وأنا الذي ادفع به الى الامام . ما له لا يتمرد علي ؟ ألسنت انا الذي اجبره على التقدم ؟ في حين اني نفسي لا املك له حق التراجع . ومع هذا فان ما سيبعثه الى الحياة مرة واحدة ، ما سوف يعيد اليه كرامته المهذورة هو وصوله الى آخر خط من

الرقعة . وهكذا ، فالأمور تنقلب دائماً في آخر لحظاتها . وهذا ما كان يبور (لألبير كامو) ان يسعد (مسيو مرسو) في لحظة اعدامه . او على الأقل يجدد له احساسه . إذ ان ابطال (كامو) كانوا يستردون سعادتهم بوصولهم الى نهاية الحياة .

ويجول في (محنة الشمر) كذلك . معنى انساني آخر ، فمشكلة العذاب فيها قائمة . ولكن القوم جميعاً يستسلمون لكائن اعلى واحد . وسواء أكان (القاضي) ام (المختار) هو الذي سيحيل (الاشجار) الى (ضحايا) فهو يخضع بدوره لقانون علوي (وذلك القانون المطلق هو الاله السماوي) . ومنها سيتعذب (شمر) او (منفي) او (مجدل) او (سنات) او (حرمله) فهم يستسلمون معذبين نادمين . وهذا ما يتجلى بوضوح في موقف (حولى) فهو يفرغ الى ربه متضرعاً نادماً . وهنا تعود المأساة بشكل اشد عنفاً . فالانسان في اللوحة يصعد بقانون علوي ، والانسانية لا تكاد تكشف عن (حريتها) بعد . وهذا هو الطابع الحقيقي والعلامة الفارقة لطريقة التفكير الشرقي ونقطة الضعف في كيانه معاً .

★

واللوحة مرسومة باربعة صفوف متكررة (والتكرار هنا قيمة بارزة في التقنية) واشخاصها في بعض الحالات خاضعون لقانون (المنظور التكراري) . وخاضعون في اماكن اخرى لمنظور خاص يفترض وضع الاشخاص القريبين في اسفل اللوحة والبعيدون في اعلاها . في حين ان طريقة (المنظور الجوي) واضحة في طريقة رسم جدران المعتقل .

ترى هناك مغزى لكل هذا ؟ ام هو محض مصادفة من ارتعاشات كف بدائية ودماغ مشحون بالاساطير ..؟ لعل ثمة دراسة معينة لهذه المشكلة بالذات تجلو هذا التساؤل . ومع ذلك فان من الطبيعي ان يكون حضور السجن المعماري في ذهن الرسام هو الذي يلي عليه المنظور الجوي . فالعمارة لا تتشكل في منظور آخر . اما اللجوء الى المنظورين التكراري والتسطيحي (وهو المنظور الذي يعبر عن نفسه في ترتيب الاشخاص من حيث ابتعادهم واقترابهم من اسفل اللوحة) فلا يلمه سوى اهمية الشيء الأقرب بالنسبة للفنان . والرعييل الاول بالطبع هم من جبابرة المحنة .. (الشمر) و (منفي) وسواهم .

ولعل التلوين هو العنصر التعبيري الاول في هذه اللوحة لقد كان (فان جوخ) مثلاً يعبر خلال اللون عن عواطفه فليس اللون لديه وسيلة للإشارة بل للتنفس عن المشاعر اما

رسام (دار الانتقام) فألوانه بدورها تعبير عن شيء . ولكنه شيء غائب فهو لم يضع اللون البنفسجي هنا والاحمر هناك (وهما من الالوان الرئيسية في اللوحة) لكي يعبر عن عواطفه الآنية كما كان فان جوخ يعبر عنها . ولكن يعبر عن عواطف ومشاعر ولا مشاعر متمازجة متشابكة تتخذ نواة لها وتتمركز حول (مأساة الحسين وذويه) فهي اذن اداة تعبيرية شاملة لا تمثل احزان او آمال انسان فردي بل تمثل احزان وآمال انسان اجتماعي ذي وعي شعبي ، يشعر بالاسى ويعبر عنه كما يشعر ايضاً بالرتاء والانتصار للعدل فيصوغ ذلك كله خلال التلوين . فمواطفه ان صح التعبير عواطف شعبية شاملة . لماذا اذن تلك المسحة المظلمة من الجو ..؟ ولماذا ذلك اللون الاحمر الصارخ بين احزان الالوان البنفسجية والسمر؟ والواقع ان جو (السايات) نفسها يتلون بمثل هذه الالوان التي يصنعها امامنا الرسام على الفطرة . ومع ذلك فالفنان هنا لم يلتزم التعبير اللوني (سواء عن قصد او دون ما قصد) حتى النهاية فلديه يؤدي التلوين وظيفة الخط والظل والضوء تماماً في الاشارة الى الاشياء . فاللون الاحمر مثلاً لا بد وانه يشير الى الدماء مثلما يزرخ اللون الاسمر بموطيء النعال . ولعل اي رسام آخر يمتلك عواطف هذا الرسام الشاملة لو حاول ان يرسم لعبه بالالوان تعبيراً مقارباً في جوه هذه اللوحة . مقارباً فحسب .

المملكة (أربشكيكال) والاله (نرجال) . (مالك خازن النار) . (شمر ذو الجوشن) ، واخيراً لاعب الشطرنج الماهر . (جزار الحارة) . جميعهم ادوات على رقعة واحدة . فهم يمثلون ابدأ جانباً سلبياً من السلطة . شخصاً متمرداً من اجل قضية باطلة في حين لا تزال ضحيته ترسم شكل فراشة كبيرة في الفضاء . ثمة قوى تبدو لأول وهلة وهي لا تمتلك سوى قواها السحرية للتعبير عن نفسية الطبقة الشعبية وعوالمها الاسطورية . غير ان هذه (القوى) . هذه (الصورة) او (التسمية) او (القصيدة) او (القطعة الزخرفية) هي في الواقع اداة سعيدة لتلوين تراث الجيل الروحي والمادي معاً . هي الحقل الذي لا يغفل (الحصيد) بل يجمع ما بين التربة والمناخ واليد العاملة والسوق المحلية وآلة الحرث وكوخ الفلاح وغنائه الليلي وبؤس زوجته واحلامه وخوار بقراته وعبث اطفاله . يجمع بين كل هذه المظاهر المتنوعة في حقيقة (برة) القمح المحصودة .

انها اداة بريئة لوضع الحياة وضعاً جديداً .

شاكو حسن سعيد

من جماعة بغداد للفن الحديث